هوسٌ سخيف

بعد أن أوصل السائق سيدته إلى المطار وفي طريق عودته انخرط في زحام طويل جدًّا .. ساعتان من الانتظار عاد بعدها إلى المنزل .. عاد فرحًا يُخبئ شيئًا خلفه .. سألها عمّا هو، فمنحته عدة إجابات لم تُصب في أيٍّ منها فلمَّح قائلا: هو شيء لم تتوقفِ عن الحديث عنه مذ رأيته للمرة الأولى .. شيء ترغبين به ولربما أنَّك تحلمين به ليل نهار ..

ــ كركرت مستهزئة: محال أن يكون ما تتحدَّث عنه خلف ظهرك .. إنه غالٍ جدا ولا أظن أن نسخة أخرى عنه موجودة في هذا الكون، كما أنّه ليس لفئة الناس أمثالي .. ذوو البشرة الجافة من أَلِفَتْ الدعك والغسل .. تحدَّثت بأسى بخيبة أمل، انقلبت رأسا على عقب لمّا رأته يرفرف قريبا من أرنبة أنفها .. شهقت ولم تصدِّق إلا بعد أن لمسته بطرف سبّابتها حين شعرت بنعومته تغزو أديم بشرتها: أهُوَ هُوَ ..

ــ نعم .. أهُوَ هُوَ ..

ــ ولكن كيف؟ هل سرقته؟

ــ وهل أبدو لك مجنونًا كي أسرق منديلا .. لقد أعطتني إيّاه السيدة وطلبت مني أن أهديه لك .. يبدو أنها تعلم برغبتك به ..

ــ لا أصدق أنها تخلَّت عنه بهذه السهولة ..

ــ لا أعتقد ذلك .. فلقد ظلَّت شاردة طوال الطريق .. تُخرجه تارةً وتارةً تُدخله حتى إذا ما وصلنا دفعته إليَّ دفعًا وطلبت مني أن أهديه لك .. ثمَّ استطردت وكأنَّما تجيبني على سؤال لم أطرحه: لا عليك .. فهو مجرد منديل .. إنها محقة فهو ليس سوى مجرد منديل .. لا أعلم لم كلُّ هذه الدراما التي تدور حوله ..

ــ أنت مخطئ .. إنه ليس مجرد منديل .. كما أنَّها لم تتخلَّ عنه إلا لسبب دفعها إلى ذلك .. ثمَّ .. يالها من طريقة بشعة لإمساك منديل كهذا ..

ــ يا امرأة .. إنه من حرير ولن يتأذى ..

ــ حتى ولو كان مصنوعا من ريح، فليس هكذا يُعتنى بالأشياء الثمينة .. أتريد أن أعاملك بتلك البشاعة ..

ــ لا ..

ــ إذن .. فلا تعترض ..

وبجدية بالغة التقطته بين إصبعيها ووضعته فوق الكنبة .. تأمَّلته لثوانٍ .. ثوانٍ كانت كافية لغسل دماغها ولإحياء طقوس مجنونة كادت أن تحطِّم مستقبلها ..

لم يكن التغيير مُلفتًا للنظر في البداية، فهي تعتني به كما تعتني أي امرأة أخرى بممتلكاتها الغالية إلا أن ذلك المفهوم الوديع طغى واستعلى حتى تخطّى حدودا ما كان عليه تجاوزها ..

أن يتحول الاهتمام من شخص إلى شيء .. أن يصبح ذلك الشيء حيًّا .. أن تندفع تلك الحياة الجديدة في أركان محرمة من غرفتها فيستحيل العش الذي جمع بين زوجين إلى طاولة قمار .. الكل حولها يراهن على قدرته على الاستمرار .. غير أن الكل فيها خاسر .. فلقد طاش عقله وجنَّ جنونها ..

كيف؟

ــ لقد أرهقت ميزانيته ..

فعدد مساحيق التنظيف والتعقيم قد تضاعف ذلك أنّها باتت تهتم بنظافة المنزل كُلِّهِ الآن .. تخشى أن يقع منديلها الغالي فوق منطقة موبوءة وفي هذا .. مبالغة ..

ــ لقد افترشت لغرورها أرضًا جديدة ..

فهو منديل كي تخرجه من حقيبتها أثناء المناسبات، فهي ترتدي قفازات نظيفة ولمصافحتهم هناك أخرى .. لا تسمح لأحد بلمسه، فقط النظر إليه من بعيد .. تخشى هالة الغبار الوهمية التي تحيط بهم .. تفعل ذلك

بغرور مصطنع وكأنَّ الذي بين يديها كنز يتلف بمجرد اللمس أو يختفي بمجرد النظر .. وفي هذا .. مبالغة ..

ــ وتلك اللحظات الخاصة التي تجمعهما معا .. النادرة بسبب طبيعة عمله .. هاهي تجري على عجل .. تخشى عليه أن يُسرق .. كلّما سمعت صوتا إثر جنونها تركته فجأة .. تتفقَّده لتجده مُتنعِّما فوق فراش وثير وسط مَجمعٍ من الزهور البهيَّة ذات الرائحة الزكية ..

ــ لم تعد كما كانت .. كانت تثرثر، فأصبحت قليلة الكلام كثيرة الطلبات .. هزيلة ممتلئة بالوساوس والأوهام .. حذرة غاضبة باستمرار .. لم تعد تهتم لوجوده أو تترقّب عودته .. لم تعد تكترث لطعامه أو تُلقي بالا لصحته .. هي في واد وهو هناك خلفها مباشرة يحاول جاهدا إخراجها مما هي فيه، حتى أتى يوم هدَّ كُلَّ جهوده ..فارقه فيه صبره وجعله يدرك أمرًا أنَّ حُبَّه لها يستدرجه إلى جنونها ..

فقد أتت والدته المُسنة لزيارتهم ذات يوم على غفلة منهم .. فمنعتها من الدخول تخشى كمَّ الأمراض التي يحملها جسدها المُهترىء .. حاول إقناعها بفتحه فأبت، وتحت إصراره رضخت، وما إن خرج لاستقبالها حتى أقفلت الباب خلفه .. خجِل من تصرفها واعتذر من أمه التي دعاها لتناول العشاء معه في أحد المطاعم، ولكنها رفضت وفضلت العودة إلى منزلها

فأوصلها .. عاد الزوج المخدوع غاضبًا .. لم يفتح الباب فتحًا بل حطَّمه تحطيمًا ثم بحث عن منديلها الغالي .. حطَّم الصندوق الزجاجي الذي يكتنفه .. أخذه وسار به وهي خلفه متعلِّقة بثيابه، ترجوه وتسأله المغفرة، ولكنه لا يستمع إليها .. حتى إذا ما اقترب من المدفأة صرخ في وجهها: كفى .. اصمتي .. أنا من بدأ هذا الجنون وأنا من سينهيه .. ثمَّ ألقاه وما لبث حتى رآها ملقاة على الأرض مغمىً عليها ..

ما إن استيقظت حتى سألت عنه غير آبهة بالتمثال الحي القابع أمامها: هاهو .. إنه بخير وبصحة .. أما أنت .. يا إلهي .. أتحبينه إلى هذه الدرجة .. إلى الدرجة التي لم أشعر بها بشوقك إليْ أو افتقادك لي طيلة مدة غيابك عن الوعي .. كنت لا تكفين عن الاتصال بي إن تأخرت عنك لدقائق، أما الآن فيبدو أنَّ دقائقي لم تعد مهمة كما كانت، فهناك من سرقها مني .. لا أصدق أني أغار من منديل .. أن منديلا لا يشعر ولا يحس يستطيع أخذك مني .. لقد كنت متأكدًا من حُبِّك لي، أما الآن فأنا لا أعلم دوري في حياتك .. هل لا أزال الحبيب المقرَّب أم أنا .. هو المهرج الكادح الذي ارتبطتِ به فقط .. كي يُسليك ويحرص على رضاك .. كيف هذا .. لا أعتقد أن من واجبي التفكير .. فهي مهزلة وقد سئمت دوري فيها .. ولذا .. فأنا مُنسحب وأردف بصوتٍ يائس يتخلّله شيء من الرجاء من الكبرياء والأمل: لم أقسُ

عليك يوما ولكني سأفعل اليوم .. عليك أن تختاري .. إما أن تتخلي عني أو تتخلي عنه .. نحن الثلاثة لا نستطيع أن نكون معًا ..

لن أستطيع تحمُّل هوسك السخيف أكثر ..

كما أني لن أستطيع الابتعاد عنك حتى ترفضيني ..

فإن كان هو ..

فقولي لا .. وسأبتعد بسلام ..

الباب المُحطَّم لا يزال مُحطمًا والهواء البارد يكتسح المكان .. الأضواء مشتعلة منذ أيام والتلفاز لم يزل يعمل منذ تلك اللحظة التي عاد فيها من المستشفى ثم استلقى على الأريكة ينتظر الجواب خائب الرجاء .. الدقائق كالساعات والساعات تبدو كالدهر يكاد ينتهي وتكاد حياته تنقضي فهي حَياته .. فهل ستعود؟

مدَّ يده نحو كوب العصير المتسمِّر بقربه .. تفاجأ حينما اختطفه أحدهم: ماذا تفعل .. ألم تر تلك الذبابة التي حطَّت فوقه ..

ــ بنبرة المصدوم .. بلهجة المتفاجئ: لقد عدتِ ..

ــ نعم .. وماذا كنت تظن غير ذلك ..

ــ لقد تخلَّيت عنه ..

ــ ألا يبدو ذلك واضحًا وهي تزيل بقايا الطعام ..

ــ استقام قاعدًا وأمسك معصمها قائلا: أنظري إليَّ وأجيبيني .. لِمَ تخليتِ عنه؟

ــ ابتسمت تنثر رذاذ الفرح من حوله حينما أجابته: لقد تخلَّيت عنه .. لأني .... لم أستطع التخلِّيَ عنك فتخلَّيت عنه ..

ــ دفعها إليه محتضنا إياها: لقد كدت أفقد الأمل مع مرور الوقت .. لقد طالت غيبتك ..

ــ لم يكن التخلي عنه أمرًا هيِّنا .. أعتذر ..

ــ نظر إليها مُردفا: هل أبدو لك بائسا ..

ــ لا ..

ــ إذن، فلم الاعتذار؟

هو .. لم يكن مجرد منديل بالنسبة لها ..

كما أنَّه لم يكن مجرد أيَّ رجل ..

إنَّه الرجل الذي أحبَّته أكثر من ذلك المنديل ولم تستطع التخلِّيَ عنه ..

إلا أنَّ تلك الأحداث لم تحدُث فعلا ..

فقد كانت حُلمًا استيقظ منه إثر صوت أحدهم يُناديه ويطرق زجاج نافذة سيارته .. لقد تحرَّك الزحام وهو الآن من بات مُعطلا للطريق .. اعتذر وانطلق سريعا إلا أنَّه لم يعد إلى المنزل بل توغَّل عميقًا إلى حيث

صاحبه .. طلب منه إهداء المنديل لأول شخص يلج دُكّانه .. واعدًا إيّاه أن يُعطيه التفاصيل لاحقًا .. غادر عائدًا ..

لقد كان للحُلم شوائبه التي ظلّت عالقة في ذهنه وأثارت مخاوفه ..

فمن طبع زوجته التَّعلق بأشيائها والمُبالغة في الاهتمام بها ..

ربما أن ما رآه نذيرٌ يُنذره ..

فلربما لن تتخلى عنه حقيقة كما فعلت بالحلم ..